بدء الصيدلة

عرف الإنسان الصيدلة منذ العصور الأولى للتاريخ . فعندما شعر الإنسان الأول بالآلام والأمراض حاول أن يعثر فيما حوله من ماء ونباتات عن علاج لتلك الأوجاع وكان الماء دون شك أول عقار استعمله لإطفاء ظمئه وتخفيف آلامه . ثم بدأ يجرب النباتات والمعادن فوجد من بينها ما كان علاجاً سحرياً لأمراضه فاحتفظ به ووصفه لأهله الأقربين والبعض الآخر كان ساماً وأضر به فابتعد عنه . وبذلك كان الإنسان الأول هو الطبيب والصيدلى والمريض فى نفس الوقت .

كان العلاج فى العصور الأولى للتاريخ خليطاً من الكشوف التى وقع عليها الإنسان بغريزته الفطرية كما كان نتيجة للتجارب والمحاولات التى يصيب بعضها ويخطئ البعض الآخر .

فالكلب إذا عضته حشرة جرى نحو الطين وغطى موضع الألم به . ورأى الإنسان أنه إذا قلد الكلب فى علاجه الذى أملته الغريزة فسوف يجد علاجاً مماثلا . والجاموس تنزل إلى الماء ليس فقط هرباً من حرارة الشمس بل للتخلص أيضاً من الحشرات التى تعلق بجسمها . وحيوانات أخرى تغطيه بطبقة من الطين أو تنظفه بلسانها لوقايته كما تفعل القطط .

وربما كانت مراقبة الإنسان الأول للطبيعة وما فيها من حيوان وطيور وكيف تعالج نفسها من الأمراض بعض الطرق التى استعملها فيما بعد . ويلاحظ أحياناً ميلا خاصاً لتناول نوع من الغذاء أو الشراب فيستنتج أن الطبيعة هى التى تقود خطانا . فالحامل ترى أحياناً دون وعى منها تأكل من الطبقات الجيرية التى تغطى جدران المنازل لافتقار جسمها إلى المواد الجيرية .

ويعرف الأطباء مرضى كثيرين يتناولون قدحاً من القهوة لتنشيط الدورة الدموية أو المواد الحرّيفة أو الحمضية تدفعه الغريزة إلى تناولها لمسيس حاجته إليها دون شعور منه .

ويرجح أن تكون المرأة وهى التى تعنى بصحة زوجها وأولادها قامت بتمريضهم وتنظيم غذائهم فتمنع عنهم بعض الأطعمة وتقدم لهم أغذية خاصة أخرى وتهيئ لهم أسباب الراحة والتدفئة والتدليك أو بتناول مزيج من الأعشاب المغلية تجمعها من الغابة وقد اكتسبت بالتجربة خبرة للتعرف على كل نبات وخصائصه العلاجية والتميز بين السام منها وغير السام .

تفيد أحياناً هذه الطرق فيشفى المريض ،وكان هذا هو الطب الواقعى كوضع الأعشاب أو اللبخات أو الطين موضع الألم والمكمدات الباردة أو الدافئة والحقن الشرجية والدهانات للحروق والجروح . ويحدث أحياناً أن جميع المحاولات لشفاء المريض تبوء بالفشل ويموت المريض بمرض غريب . فاعتقد الإنسان البدائى أن الموت قبل الشيخوخة بمثل هذه العلل ظاهرة غير طبيعية لابد أنها جاءت عن طريق قوى غامضة لا يستطيع إدراكها أو التحكم فيها . . ربما كانت الأرواح الشريرة التى لا يستطيع محاربتها وحده . بل عليه أن يبحث عن وسيلة يحمى بها نفسه . هذا العدو الذى لا يراه ولكن شبحه يخيفه ويهدده فى كل لحظة من حياته دون أن يستطيع الصمود أمامه أو محاربته والتغلب عليه ؛ هذا العدو هو الأرواح الشريرة التى تتعقب كل خطوة من خطواته وفى طعامه والماء الذى يشربه والهواء الذى يستنشقه وأثناء نومه . فإذا انتابه مغص حاد أو صداع فى رأسه أو آلام فى جسمه أو أصيب بالعمى أو انهارت قواه فلم يعد يستطيع الوقوف على قدميه والخروج إلى الغابة لجمع غذائه من الحيوانات والثمار فلا بد أن يكون مرضه عن طريق هذه الأرواح أو الشياطين

أو إنسان يريد له الأذى .

وأخذ يبحث عن تلك القوة التى تستطيع أن تتغلب على تلك القوى غير المنظورة . ووجد فى السحر ضالته . بل إنه هو الذى خلق ذلك الساحر عندما وضع فيه ثقته بأن لديه من القوى ما يمكنه من محاربة تلك القوى الخفية أو التوسل لدى إله قادر بأن يرفع عنه غضبه ويمنحه الشفاء .

وهكذا بدأت العقيدة فى السحر منذ العصور الأولى للتاريخ وما زالت آثارها باقية حتى اليوم فى كل أنحاء العالم ليس فقط فى آسيا وإفريقيا بل فى أوربا وأمريكا . وتعجب عندما تعلم أن أمراضاً كثيرة كان يشفيها هؤلاء السحرة بالرغم من عدم فهمهم للأمراض . إن نظرية الجراثيم والفيروسات التى بدأت كشوفها العلمية منذ باستور وكوخ فى القرنين التاسع عشر والعشرين كانوا يجهلونها فى الماضى ولكنهم كانوا يحسون بوجود شىء غير منظور يسبب الأمراض والأوبئة عبروا عنه بالشياطين والأرواح الشريرة .

وكانت عقاقيرهم التى وصلوا إليها خلال تجارب الأجيال المتعاقبة إلى جانب العلاج النفسى الذى يحتل فى المدنية الحاضرة مركزاً ذا خطورة هما أساس العلاج الناجح الذى كانوا يستعملون له الرقى والتمائم والتعاويذ السحرية تخفف من آلام المريض وتنجح فى بعض الأحيان من شفائه والتغلب على المرض .

استفاد الطب كثيراً من تجارب هؤلاء السحرة الأولين ومن محاولاتهم وإخفاقهم أحياناً ونجاحهم فى أحيان أخرى فى الكشف عن نباتات تساعد فى إحداث الشفاء وإن كانوا يعملون على إخفاء ذلك ويتظاهرون بأنه نتيجة للسحر وقوى خارقة للطبيعة . وكان هذا الطب السحرى هو بداية الطريق لتراث من العقاقير الطبية والنباتات التى ازدادت بمرور

آلاف الأعوام . وما زال بعض منها يستعمل حتى اليوم فى الطب الشعبى ومنها عقاقير ثبتت فوائدها وصارت جزءاً من الدساتير الطبية فى العالم . وأصبح الساحر أهم رجل فى القرية يهرعون إليه ويطلبون منه النجدة .

ولم يكن من اليسير لأى إنسان أن يتخذ السحر مهنة له ؛ وهو بمقام الطبيب والصيدلى فى زماننا والساحر الطبيب والكاهن فى عصور الفراعنة وأهل أشور وبابل والهنود والصينيين والإغريق وغيرهم . بل كانت هناك شروط يجب توافرها فيمن يريد أن يصبح الطبيب الساحر .

قد يكون الطبيب الساحر ذا قوة خارقة للطبيعة أو ذا شعور مرهف أو طبيباً نفسياً ماهراً عالماً بالعلاج الحقيقى للأمراض يعالج بها المرضى الذين يشكون من العلل العادية إلى جانب طرقه السحرية . وحتى يصبح الساحر والطبيب الماهر كان عليه أن يتدرب على يد ساحر قضى فى مهنته الأعوام الطوال حتى يعرف عنه العقاقير والأعشاب والطرق والأساليب السحرية التى كان يضطر أحياناً إلى بذل الكثير من الجهد والمال فى سبيل الوصول إليها .

وفى أغلب الأحيان كان أبناء الأطباء السحرة يحلون محل آبائهم وتنتقل وسائلهم السرية وطرق تطبيبهم عبر الأجيال لا تخرج عن عائلات معينة .

وعندما يصبح الطبيب والساحر للقرية أو القبيلة يرتدى ثياباً خاصة ويتناول أطعمة غير الأطعمة المألوفة ثم يعيش معتزلا لا يتحدث إلى أحد فى أمور الحياة العادية بل يصير الإنسان الغامض للجميع .

كانت الحال حرباً عواناً بين الساحر وبين الشياطين وأعمال السحر التى يعتقدون أنها سبب جميع الأمراض ، وكانوا يطاردونها بالأقنعة المخيفة والأبخرة والروائح الكريهة الخانقة والأصوات المفزعة والتصفيق بالأيدى والضرب على الطبول والصفائح وامتصاص الشيطان من الجسم المريض

بواسطة أنبوبة مجوفة وحمل الخاتم والرقى المضادة للسحر ، ثم تقديم القرابين والهدايا وتلاوة التعاويذ . ومن وسائلهم التى كثيراً ما كانوا يلجأون إليها أن يتناول المريض أشربة كريهة الطعم والرائحة حتى تضطر الأرواح الشريرة إلى مغادرة جسم العليل . وطريقة ثالثة أن يعالج بأعشاب أو أجزاء من النبات شبيهة فى شكلها بالعضو المصاب .

لم يبق من تلك الطرق البدائية للعلاج بالسحر أو التوسل للآلهة أو بالأعشاب وغيرها من العقاقير إلا ما يمكن مشاهدته حتى اليوم فى بعض مناطق العالم النائية عن العمران ، أو ما تركوه من نقوش وآثار فى مصر والعراق والهند والصين وإيران واليونان وبعض البلاد الأوربية والأمريكية . وهى آثار قليلة وجاءت فى أزمنة متأخرة كثيراً عن العصور الأولى للعلاج . ومن العسير أن نجزم بأن وسائل العلاج هذه كان أول ظهورها فى إقليم ما وانتقلت إلى غيره فى عصور تالية . ولكن هذه الآثار لها قيمتها البالغة لو عرفنا منها أعشابهم وطرق تطبيبهم . وما زال لبعض الأعشاب التى استعملوها قيمته الطبية المعترف بها .

فنبات (الراولفيا) الذى ذكرته أقدم كتب الطب الهندية كان يستعمل منذ آلاف الأعوام واعترف به الطب الحديث لوجود مادة (الرزربين) الفعالة لتهدئة الأعصاب وتخفيض الضغط المرتفع وتصنع منه حبوب وحقن يصفها الأطباء كثيراً فى الأعوام الأخيرة . وكان المهاتما غاندى الزعيم الهندى يتناول مغلى نبات الراولفيا العلاج الشعبى المعروف فى الهند ، ليساعده على تحمل أعباء مسؤولياته الضخام دون إرهاق لحالته النفسية .

وشراب الجنسنج الذى عرفته الصين منذ أقدم العصور وذكرته دساتير الصين المغرقة فى القدم ما زال حتى اليوم عقاراً معروفاً وشعبياً .

ويعد الصينيون منذ آلاف السنين لعلاج الاستسقاء شراباً من

مغلى جلود الضفادع ، وأثبتت بحوث العلماء فى أيامنا أن جلدها غنى بمادة (البوفاجين) المدر للبول و (الإدرينالين) وبهذا أيضاً فوائده الطبية المعروفة .

وإلى جانب الأعشاب الطبية توجد بين الأساليب الصيدلية التى كان يلجأ إليها الإنسان البدائى صنوف من المواد المخدرة التى أريد بها تخفيف آلامهم وجراحاتهم مثل القنب والأفيون والكافور وإلى سموم يضعونها فى أطراف سهامهم كالكيرار curare .

وازداد اهتمام العلماء فى العصر الحديث بالعلاجات الطبية القديمة التى كانت على صورة أشربة وخلاصات يأخذها المريض عن طريق الفم أو مساحيق تخلط بالزيوت النباتية أو الدهون الحيوانية كمراهم للحروق والقروح وأبخرة تستنشق أو حقن شرجية . وكثيراً ما كان يستعمل الدواء مع تلاوة التعاويذ السحرية أو الصلوات الدينية التى كان فى اعتقادهم أنها تزيد من قوة فعل الدواء . وبقيت بعض تلك العقاقير حتى اليوم واختفى البعض الآخر بتقدم الطب المعاصر ، كما زاد الاهتمام بدراسة ما تركوه من آثار . وإذا عثروا على أوراق أو جذور جافة أو قطع متناثرة منها أو من سيقان الأعشاب أو زهورها أو بذورها أو ثمارها فكثيراً ما يلاقون الصعاب فى الكشف عن حقيقة النبات وهل اندثرت فصيلته أو نوعه أم يوجد حتى اليوم . ومعرفة ما إذا كان يحتوى على جواهر فعالة .

وتشاهد أهمية الساحر الطبيب عند الأفريقيين الوطنيين حتى اليوم . إنهم يعرفون جيداً مئات الأنواع من أشجار الغابة وأعشابها ونباتاتها العطرية والمعادن والأملاح وخواصها وفوائدها عن طريق التجربة عبر الأجيال المتعاقبة .

وفى استطاعة الساحر أن يقتل كما كان فى استطاعته أن يبرئ .

وكان الساحر الذى يقتل أو يؤذى أى إنسان منبوذاً فى المجتمعات البدائية الحضارة . ويطلق على سحره السحر الأسود. ومن تثبت عليه تلك الجريمة الشنعاء يجب أن يعترف فوراً . فإذا أنكر قاموا باختبارات . ومن أهم تلك الاختبارات تجرع السم . فإذا كان بريئاً تقيأ السم ونجا من الموت . أما إذا كان يمارس السحر الأسود فلا بد أن يموت مسموماً . وكانت المواد السامة فى أنواع من الأعشاب يعرفونها تجمع بشروط خاصة وتحضر حسب طرق معينة وتركيز متفق عليه للسم فى الشراب .

إن اعتقادهم فى فعل السم كان يختلف تماماً عن الحقائق الطبية والكيماوية للمواد الفعالة به بأنه يقتل إذا وصل تركيزه إلى درجة معينة قد تبلغ أجزاء من المائة ألف أو عشرة آلاف أو أكثر أو أقل من ذلك . وتختلف مقاومة الأجسام فى حدود خاصة حسب قوة المادة السامة . فإذا زادت كميتها ولو قليلا جداً فالموت واقع لا محالة . أما القدماء فكانوا يؤمنون بأن العقاقير لا تأثير لها ألبتة على الإنسان سواء كعقار شاف أو سم قاتل إلا إذا كانت مصحوبة بالصلوات والتعاويذ .

وهناك اختبار آخر غريب كان معروفاً فى إفريقيا والهند وهو الماء . فللتأكد من ممارسة المذنب للسحر الأسود يلقى فى بحيرة أو نهر . فإذا طفا ثانية فوق سطح الماء تثبت عليه جريمة السحر لأن الماء نبذه فقذف به ثانية ويكون جزاؤه القتل . أما إذا كان بريئاً — كما يعتقدون — فالنهر يقبله ويأخذ فى الغرق . وحينئذ يسارع السباحون إلى انتشاله من الماء وإنقاذه من الغرق .

ولا تزال آثار هذه المعتقدات القديمة موجودة حتى الآن عند بعض الشعوب . وإن كانت آخذة فى الانقراض سريعاً بتقدم المدنية وازدياد عدد المتعلمين .

كانت الظواهر الطبيعية الخارقة للعادة كالبرق والرعد والزلازل والثورات البركانية وفيضان الأنهار وصياح أنواع من الطير والولادات غير الطبيعية عند الإنسان والحيوان تعتبر نذيراً للحوادث المشؤومة . وفى أحيان أخرى كانوا يبحثون عن مثل تلك الدلائل على وقوع الخير أو الشر فيفحصون أحشاء الحيوان ، أو بنقط الزيت يلقونها فى الماء أو غير ذلك من الطرق التى كانت منتشرة فى المجتمعات الأولى . فإذا سقط الملح على الأرض كان دليلا على قرب وقوع سوء لأهل البيت . ولكن كانت عندهم طرق لمنع وقوع ذلك الشر . فيأخذ أحد أهل هذا البيت بعض ذلك الملح ويلقيه من وراء كتفه .

وإذا أراد أحدهم السفر ورأى من العلامات أو الدلائل ما ينذر بوقوع الشر أجل سفره .

وفى جزر بورنيو مثلا يعتقدون حتى الآن بأنهم إذا لقوا فى طريقهم طيراً يطير عن يمينهم كان هذا فألا طيباً . فإذا كان الواحد منهم فى طريقه لزيارة مريض فإنه يتمنى أن يلقى طيراً فى طريقه على يمينه ليطمئن على قرب شفائه . وإذا تحققت أمنيته وقابل الطير جلس على الأرض وأخذ يمضغ قطعة من الطباق أو عشباً من الأعشاب حتى يمسك بتلابيب الحظ الحسن . ثم يضع القطعة التى مضغها فى ورقة شجر ويحملها إلى المريض الذى يبتلعها ولابد أن يشعر بتحسن فى صحته على الفور ، وقد يكون ذلك للأثر النفسى على حالتهم المرضية .

وإذا فوجئ الزائر وهو فى طريقه إلى بيت المريض برؤية طير عن يساره فهذا نذير شؤم . فما على الزائر إلا أن يدور حول نفسه ويعود إلى الوراء حتى يجد الطير إلى يمينه . ويظل هكذا يسير فى طريق نصف دائرى حول الطيور لتكون دائماً إلى يمينه وبذلك يتحول نذير الشؤم إلى فأل حسن يحمله الزائر معه إلى بيت المريض .

وفى ميناء دربان فى الناتال كان يشاهد فى السوق الوطنية وفى الحىّ الذى يعيش فيه أهل البلاد الأصليون حوانيت تبيع الأعشاب الطبية والمعادن والثمار المجففة وأدوات السحر من أحجبة وجماجم وجلود ثعابين وعيون وأسنان . إنهم يعرفون كثيراً من الوصفات الطبية والسحرية من الأعشاب ، وقد أثبت الطب الحديث فائدتها ؛ كما أن هناك من العقاقير السامة ما يعطى ترياقاً لسموم أخرى . وقد انتشر العلاج بالترياق عند العرب ثم فى أوربا خلال العصور الوسطى . وفى موزمبيق وفى أنجولا وجزيرة (ساو توميه) على خط الاستواء فى المحيط الأطلنطى يجلس بائع العقاقير على قارعة الطريق وقد وضع أمامه عشرات الأنواع من الأعشاب والحجارة وجلود الحيوان وشعرها وقطع العظام والزيوت والدهون . وفى غابات الكونغو وأنجولا واتحاد جنوب إفريقيا وغيرها من البلاد الإفريقية ترى الأثر البالغ للسحر وخوفهم منه ثم التجاءهم إلى الطبيب الساحر الذى يعتبر أهم رجل فى القرية .

ويعتقدون أن فى استطاعته أن يشفيهم حتى ولو كان فى بلدة بعيدة عنهم . ويقدمون له النقود ليبعد عنهم الأمراض والنكبات ويمنحهم الأحجبة والتمائم التى يؤمنون بأنها تجلب لهم الثروة والخير وتحفظ عليهم صحتهم . ومن المناظر المألوفة لديهم رؤية الساحر يمتطى حصاناً أو حماراً يدخل إحدى القرى فيلتفون حوله هذا يطلب منه شراء تميمة تقيه من الكسور فى الحروب والمعارك وآخر ضد الأمراض وثالث ضد عضة الحيات وآخر ضد الأرواح الشريرة والعين الحاسدة . وتوجد التمائم داخل أكياس وضعت بها أشياء مختلفة مثل قرون الجاموس وريش العصافير الحمراء أو بعض الطين الأحمر اللون أو أسنان أو شعر حيوانات الغابة وقطع من جماجم بشرية قتل أصحابها لهذا الغرض . ويعلقون التمائم أحياناً فوق أكواخهم أو على أشجار وسط زراعاتهم لتبعد عنها

بائع الأحجبة أو الساحر الطبيب فى أفريقيا

الشر . ولايزال الكثيرون من سكان المناطق الإفريقية ذات الغابات ، والنائية عن العمران يعتقدون أن الأمراض تسببها الأرواح وكذا السحر ثم الديدان التي يعبرون بها عن المرض فيقال إن هذا المريض عنده ديدان في الصدر أو الأمعاء أو في الرأس ويجعلون كل عقاقيرهم والشعائر السحرية من أغان ورقص وإطلاق أبخرة وروائح كريهة وأدوية ذات طعم مقزز قصد بها إخراج هذه الديدان والتخلص منها حتى يشفى المريض .

لم تتغير هذه الغابات والأحراش كثيراً منذ آلاف السنين بالرغم من اختفاء كثير من الحيوانات الضارية وامتداد العمران وإنشاء الطرق الممهدة التي تصل حتى القرى وسط الغابة والمكونة من أكواخ بنيت من فروع الأشجار وألواح الصفيح أو الغاب .

إن حياة أهلها وطرق تطبيبهم وسحرهم لم تتغير إلا قليلا خلال تلك الأجيال الطويلة وتقدم صورة قريبة بعض الشيء من مظاهر الحياة منذ آلاف السنين .

ويشاهد حتى اليوم في الريف الهندى والمصرى وغيرهما من البلاد الآسيوية والإفريقية كيف يعالج ملايين المرضى بطرق اختلط فيها الطب الشعبي القديم بالسحر ، وتجد في بعض الكتب القديمة وصفات ضد السحر والأرواح الشريرة والحسد إلى جانب وصفات طبية كشف الطب الحديث عن أثر بعضها الناجع في علاج الأمراض . وآمن كثيرون بالعلاجات الشعبية حتى من بين المتعلمين والأطباء أنفسهم . ومعظم العقاقير الشعبية القديمة لا تزيد عن أطعمة وأعشاب وأملاح معادن وزيوت استعملت في الأصل لأغراض منزلية أو نمت في الحقول المجاورة . . ويمارسون أيضاً الفصد والكيّ والحجامة كما كان يمارسها القدماء .

واللبخات كعلاج طبي أو سحرى صنعت من أوراق أنواع خاصة من النبات تدق وتعجن مع دهون أو زيوت وقد يكون مع روث الحمير أو الجاموس . ثم توضع محل الألم . وينزعها المعالج وهو الطبيب الساحر ليرى المجتمعون حول فراش المريض جسما غريباً داخل اللبخة يعتقدون أنه دخل جسم المريض بطريق السحر . .

وفى جزر الملايو يصنع الطبيب الساحر دمية من ورق الشجر ويضعها فوق رأس المريض مع بعض الطعام . ومن معتقداتهم أن الأرواح الشريرة تخرج لتأكلها وفى تلك اللحظة يقطع الساحر رأس الدمية (العروسة) التى انتقلت إليها الأرواح الشريرة .

إن قصة الطب فى المائة العام الأخيرة وتقدمه السريع المذهل منذ ثلاثين عاماً قصة رائعة . . .

فمن العقاقير ما كشف عنه منذ أعوام قليلة ثم أخذ مكانه عقاقير أخرى جديدة اختفت بدورها وأصبحت نسياً منسياً فى ركن من أركان الصيدليات.

فمثلا سكان بيرو الأصليون من الهنود الحمر يستعملون الشاى المصنوع من خشب الكينا لعلاج الحمى ، ونقلها الرهبان الكاثوليك معهم إلى أوربا واستخرج منها الكينا ويون فيما بعد أملاح الكينين القلوية .

أذكر أن والدى رحمه الله كان أصيب بالحمى (المالطية) عام ١٩٣٧ تقريباً ولم يكن فى جعبة الأطباء المعالجين حينذاك من عقار لتخفيض حرارة الحمى سوى أملاح الكينين . فإذا هبطت الحرارة قليلا فرح الطبيب . وهلل لمفعول الكينين السحرى الذى يفوق الأسبيرين وأشباهه . ولكن الحرارة كانت لا تلبث أن تعود إلى الارتفاع . إن أملاح الكينا ما زالت محتفظة بقيمتها الطبية فى علاج الملاريا وأمراض أخرى . وفى ذلك الوقت تقريباً ظهر البرونتوزيل وهو أول سلفاناميد

استعمل فى العلاج ، ولم يكن البرونتوزيل فى بدء أمره سوى جزء من مادة كياوية ملونة مركبة فى المعمل تستعمل فى صباغة الأقمشة . ثم استعملت مركبات كياوية أدخل على تركيبها تحسينات حتى تكون أعظم أثراً وأقل ضرراً . وجاء بعدها عقاقير كالمضادات الحيوية : البنسلين والستربتومايسين والكلوروماستين والتراسيكلين . . .

وكانت إحدى السيدات المشتغلات بالعلاج الشعبى فى إنجلترا أواخر القرن الثامن عشر تصف مزيجاً من الأعشاب مكوناً من عشرين نباتاً مختلفاً لمداواة الاستسقاء وأمراض القلب . وقام الدكتور (وليام ويزرنج) بإجراء أبحاث طويلة ومختلفة عرف بعدها أن نبات الديجتالا له ذلك الأثر الطيب على القلب والاستسقاء وهو موجود فى مادة الديجتالا . وفى أوربا ومصر وربما كان ذلك فى بلاد أخرى يوجد أطباء يصفون حتى اليوم مزيجاً من الأعشاب خلطت بنسب معينة . بل هناك بعض الصيدليات فى أوربا تبيع أكياساً وعلباً بها صنوف الأعشاب يكتب عليها أسماء الأعشاب وأجزائها المستعملة وقد يحتفظون بأسمائها سراً . فيكتب عليها فقط طريقة الاستعمال والفوائد الطبية .

ومنذ عشرين عاماً تقريباً كان شيئاً مألوفاً فى الأسواق الأسبوعية فى الريف المصرى رؤية الدجالين يعالجون المرضى ويبيعونهم قطرات العين السائلة والجافة والأشربة المقوية والمنقية للدم والشافية من الأمراض والحميات والمراهم العجيبة والأقراص والحبوب ذات التأثير السحرى لتقوية الأعصاب أو ضد الإسهال أو الإمساك .

وظل الكثيرون من الفلاحين وأهل الريف من الفقراء يعتمدون فى تطبيبهم على حلاقى الصحة والعطارين والدايات ومدعى الطب والسحرة إذ قد يتعسر على مرضاهم الانتقال إلى المستشفيات فى المدن أو إلى

٢٧

عيادات الأطباء أو تمنعهم تقاليد قديمة من معالجة نسائهم . وكثيراً ما كان يحدث أن نساء الريف يصبن بنزيف خطير قد يكون نتيجة جهل مدعيات الطب والمولدات الجاهلات وعبثاً يحاول أطباء المستشفى أو الممرضات نقلهن لإنقاذهن .

سومر وبابل وآشور

يبدأ التاريخ المعروف للعلاج فى أرض العراق أو بلاد النهرين دجلة والفرات . وكانت من أوائل الشعوب القديمة ذات الحضارة التى عاشت قبل الميلاد بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة وعاصرت أولى الحضارات المصرية القديمة . أى هاتين الحضارتين كان أسبق ؟ . . . هذا ما لم يمكن تأكيده حتى اليوم وإن كانت أقدم الآثار التى وصلت إلينا وكشفت عن مدنيتها وعن آثارها الطبية لشعب سومر بالقرب من رأس الخليج الفارسى . وعرف من آثار كل من مصر وسومر القديمة أن هناك شبهاً كبيراً بين مخلفات العصر الحجرى فالنحاسى فالبرونزى فالحديدى فى كل منهما . وكذلك اقتصاديات البلاد، ونظم حكمهما ومعتقداتهما الدينية وما تركوه من آثار فنية وأدبية ومعيشة أهلها . وكان الطب عند كليهما مزيجاً من الطب الواقعى والدين والسحر . وأثرت مدنيتهما فيما حولهما من بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط وآسيا .

وكان من مظاهر مدنية سومر وبابل النقش على الصخور والكتابة على ألواح الطين بقلم مدبب من الغاب لذلك سميت بالكتابة المسمارية ثم تجفف الألواح فى الشمس أو فى أفران .

وقد بقى إلى يومنا هذا عدد كبير منها وإن كان الكثير منها قد تحطم إلى قطع صغيرة من الصعب الجمع بين أجزائها المتناثرة أو العثور على كل أجزاء اللوح الواحد . من بينها آثار طبية وأدبية وتاريخية رائعة بقيت تلك الآلاف من السنين لتقص على العالم أولى حضاراته . كان من بينها قصص عن بداية الخليقة والطوفان الذى جاء ذكره فى الكتب المقدسة .

وقد عثر فعلا على عمق كبير تحت الأرض على آثار تدل على حدوث فيضان مروع قبل ذلك التاريخ بآلاف أخرى من الأعوام .

وقد عثر على مكتبة كاملة من هذه الألواح الطينية جمعها الملك آشور بانيبال الذى حكم آشور فى القرن السابع قبل الميلاد وكان له الفضل فى تسجيل المعلومات الطبية وغيرها من العلوم والفنون والآداب التى ازدهرت فى عهده . ومعظم هذه الألواح سجلات رسمية وتواريخ الملوك والآلهة وعقاقير طبية وتعاويذ سحرية وأناشيد دينية . وقد قام بدراستها العالم الأثرى كامبل تومسون ونشر نحو ستمائة وستين لوحة طبية وكذلك كتاب (الأعشاب الآشورية) ذكر فيه أكثر من مائتين وخمسين من العقاقير النباتية التى استعملها أهل سومر وبابل وآشور .

ومن بين الألواح الطينية ما اختلطت فيها التعاويذ والرقى والأناشيد التى يلقيها الأطباء الكهنة عند زيارتهم للمريض وقوائم بأسماء الأعشاب والمواد الحيوانية والمعدنية ونصائح لعلاج الحمى والصداع وأمراض العيون والآذان والأسنان والصدر والأمعاء وغيرها من مختلف الأمراض .

ويبدأ الطبيب الساحر أو الطبيب الكاهن بالاستقصاء عن أسباب المرض فلا بد أن يكون بسبب ارتكاب المريض بعض الأخطاء بعلم أو دون علم مما أساء إلى أحد الآلهة أو الشياطين . أو نسى تعليق التميمة التى يجب عليه ألا يخلعها من عنقه . أو أكل سمكاً فى الأيام المحرم أكله فيها ، أو سمع كلباً ينبح وراء أسوار المدينة وقت غروب الشمس ، وربما كان ذلك بسبب نعيق غراب أسود على يمينه وهو فى الطريق إلى بيته . . . وإذا لم يكن شىء من ذلك فقد يكون بسبب لعنة أو سحر دبره له أعداؤه .

وقد ييأس الطبيب الساحر من معرفة تلك الروح الشريرة فيسميها جميعاً بأسمائها . فإذا ذكر اسمها خرجت من جسم المريض . وربما

يستعصى على أمهر الأطباء الكهنة والسحرة إخراج تلك الشياطين والأرواح فيطلبون العون من (يا) إله مدينة (إريدو) وهو أيضاً إله النور والخير . وينشد الكاهن التراتيل ويضع أمام المريض العسل والزبد والملح والثوم لعله يغرى الروح بالخروج للأكل منها . ثم يحرقها الطبيب الكاهن . وإذا لم تنجح هذه الطرق فى جعبته وسائل أخرى كثيرة . فيعد للعليل شراباً تعافه النفس لا يكاد يتجرعه المريض حتى يولى الشيطان الأدبار . أو يشعل النار فى بعض الأعشاب والصموغ التى لا تلبث أن تنتشر أبخرتها حول المريض . أو يلجأ الساحر الطبيب إلى دمية صغيرة مصنوعة من الشمع ويوجه الحديث إلى الروح ليغريها بالدخول فى جسم الدمية .

وعندما تنتشر الأوبئة ويرى الكهنة الأطباء ألوف المرضى يموتون ولا سبيل إلى إنقاذهم فإنهم يلازمون معابدهم ويرقبون تحركات النجوم فى السماء . ويعرفون منها إذا كان الوباء سيزداد انتشاراً أو فى طريق الزوال . وذلك بتجمع النجوم فى ركن معين من السماء إذا بدأ التحرك عنه كان دليلا على قرب نهاية الوباء .

واشتهر الكهنة البابليون بالتنبؤ عن المستقبل وعن شفاء المرضى أو موتهم بدراسة كبد الماشية ومقارنتها بكبد مثالية صنعت فى قالب من الطين . كانوا يؤمنون بأن الكبد هو مقر الروح . روح الإنسان الغامضة . فإذا وجدوا فى الكبد التى بين أيديهم تغييراً كبير عن تمثال الكبد المصنوع من الطين دلهم ذلك على ما ينتظرهم من خير أو شر .

وعرف عن أهل بابل أن المريض إذا يئس الأطباء من شفائه حملوه إلى الطريق العام ليراه المارة وقد يصف له أحدهم علاجاً عرفه من قبل لمثل مرضه .

وسجلت التعاويذ والأناشيد والوصفات وأنواع العلاج والعقاقير

فى الالواحات الطينية المحروقة .

ووجد من بينها عدد كبير من الالواحات الطبية التى أصبحت مرجعاً هاماً لدراسة العقاقير السومرية .

وعثروا منذ أكثر من خمسين سنة على لوحة طبية لأنواع العلاج بالعقاقير التى كان أكثرها من النباتات وبعض المواد الحيوانية والمعدنية فى مكتبة (نفر) وإن لم تترجم إلا منذ أعوام قليلة . يوجد بها اثنتا عشرة وصفة أو تذكرة طبية وتعتبر أول دستور للأدوية فى العالم .

وفى إحداها « نظف جلد ثعبان الماء ثم جففه واسحقه . اخلطه بنبات (الأمامشد وباسكال) وجذور الآس والمسحوق القلوى والشعير وراتنج شجر الشربين وجلد طائر (الكوشيو) . اغمرها بالماء واغلها على النار . افصل هذا الماء واغسل الجسم المريض وضع عليه زيت الشجر وأضف إليه (الشاك) » .

وهذه تذكرة طبية أخرى « اسحق خشب شجر الكمثرى مع زهور نبات القمر . ثم أذبها فى الجعة وايشربها المريض » .

وللصداع « نصف مقياس من الخردل المسحوق معجون بماء الورد يوضع فوق الرأس ويغطى برباط لمدة ثلاثة أيام » .

واستعملوا الحقن الشرجية واللبوسات والتقيؤ لعلاج أمراض المعدة . وكان يتبع مع هذا العلاج نظام غذائى مقصور على اللبن أو السوائل .

ولأمراض الصدر استعملوا جهازاً خاصاً . يضعون مغلى الشمر فى إناء تغلق فتحته بالطين وتمرر منها غابة رفيعة توضع فى فم المريض لتلقى البخار . « ويستمر العلاج تسعة أيام » . . .

ومن الأملاح التى استعملوها وذكرتها اللوحة الطبية ملح الطعام (كلورور الصوديوم) وملح البارود (نترات البوتاسيوم) . وذكر فى

إحدى الوصفات طين النهر المسحوق لاستعماله كعقار يخلط بالعسل . واستعمل زيت النهر وزيت الشجر . وعرفوا صناعة الصابون بمزج المسحوق القلوى الذى عرفوا كيفية تحضيره من النباتات القلوية مع بعض الشحوم والزيوت .

وعرفوا طلاءات الوجه ودهان الشعر لإطالته وإزالة الشيب وكان علاجها « صفراء الثور الأسود والعقرب والخنزير ورأس الغراب الأسود واللقلق (البجع) مع الأفيون وبعض العقاقير الأخرى والزيوت » .

ومن هذه الاوحة الطبية وغيرها من الاوحات عرف عدد كبير من النباتات والحيوانات والمعادن .

فمن النباتات التى عرفوها ذات العقاقير المخدرة والمهدئة للآلام كالأفيون والحشيش والبلادونا واللفاح .

ومن النباتات السامة الخطرة الشيكران .

والشيح بابونج لاضطرابات المعدة والأمعاء . ومن المسهلات بذور الخردل تؤخذ كما هى . وتستعمل أيضاً لعمل اللبخات . والخردل فى الماء للتقيؤ . وكان للخربق Hellabour أهمية طبية كبيرة للعلاج من الداخل والخارج وللتبخير . ويبدو من كتاباتهم اهتمامهم بماء الورد وكان من الأدوية العزيزة الغالية الثمن التى تحضر فى معابد بابل . .

ومن النباتات ذات العقاقير القاسيا (القثاء الخنادى) والشيكوريا والخس والبصل والخيار والترمس والثوم والزعتر والشمر والكراوية وجذور عباد الشمس والحلتيت . . . والقمح والشعير والذرة الرفيعة .

وكانت العقاقير تعد من الثمار وعصاراتها أو البذور والجذور والأوراق والراتنجات والصموغ .

ومن العقاقير التى كان يصفها قدماء أطباء بابل تلك التى كانوا ينسبون إليها فوائد كثيرة مما يضطرنا للشك فى فائدتها وأن بعضها علاجات سحرية

أبو بكر الرازى

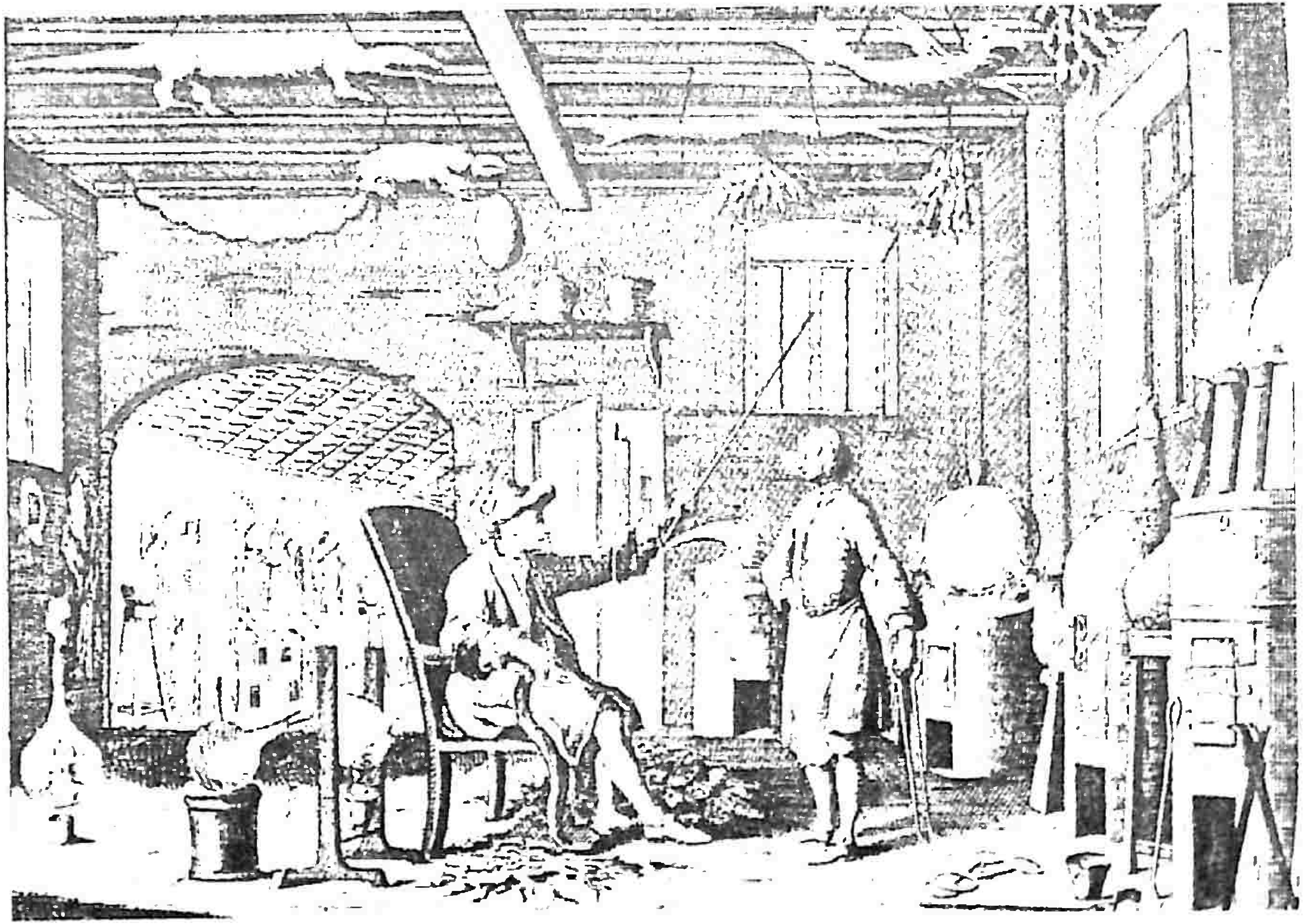

معمل كيماوى فى القرن الثامن عشر

ومن هذه العقاقير ما كانوا يسمونه (أمهور — بانى) ويغلب على الظن أنه نبات الأقحوان الأصفر وقد أوصوا به كدهان للدغ العقرب وآلام الأسنان وغسول للوجه والأذن والعين . ويعطى على هيئة شراب لليرقان واضطرابات المعدة ولدغة الحية والأمراض التناسلية وطرد الشياطين من الجسم .

ومثال ذلك أنهم كانوا يوجهون اهتمامهم لشروط هى إلى السحر أقرب منها إلى الطب مثل الأماكن التى يزرع فيها ووقت جمعها . فتستعمل مثلا جذور نوع من نبات الحسك الذى ينمو فوق القبور لعلاج بعض الأمراض . وعقاقير أخرى يجب أن يشربها العليل فى الصباح على الريق . ومن الحيوانات دهن الحية السوداء ولبن بقرة بيضاء . وعين ودم الدجاجة . ولسان الفأر . وشعر الكلب والثعلب . وهذه أيضاً

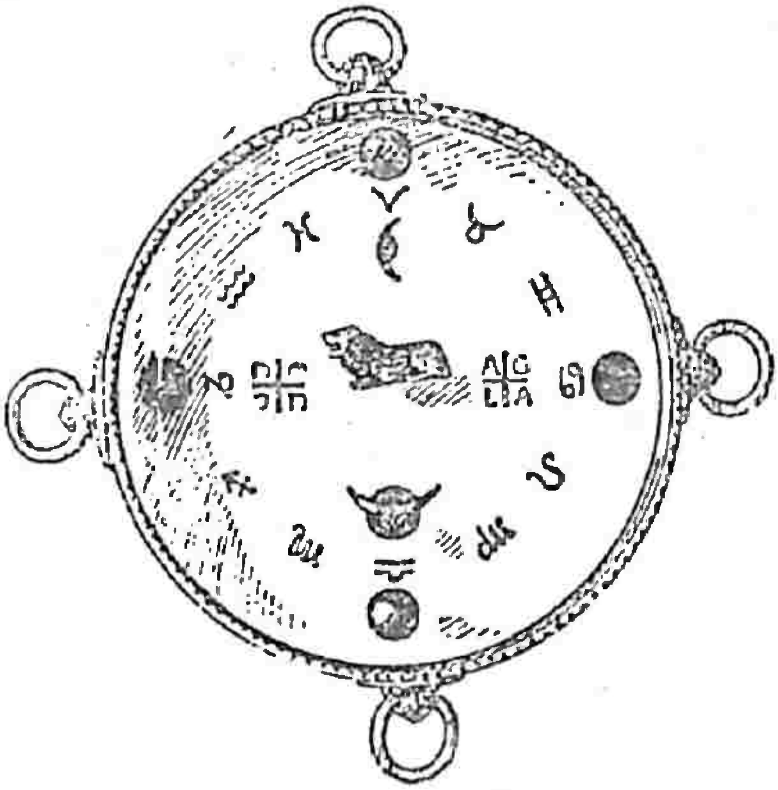

حجاب يعلق على الصدر للوقاية من الأمراض

يظهر عليها الطابع السحرى .

ومن المعادن الفيروز والياقوت وغيرهما من الأحجار النفيسة والمعادن ، والتراب يؤخذ من أطلال منزل أو معبد قديم . وكانت العقاقير تحضر بعناية فتسحق فى الهاون أو تغلى فى الماء أو تمزج بالدهون ولم يذكروا إلا نادراً كميات العناصر الداخلة فى الأدوية بل تترك لتقدير الصيدلى الطبيب .

الصيدلة والطب فى مصر القديمة

بقيت صور من حياة المصريين القدماء آلافاً من السنين منقوشة على جدران الأهرام والمعابد والقبور ، وفى أوراق البردى التى تعد من أروع كشوف الإنسانية التى قفزت بالحضارة خطوات كبيرة إلى الأمام فسجلت التاريخ والعلوم والفنون . وعثر على أقمشة وأذوات تستعمل فى الحياة اليومية فى صناديق من البرونز والفخار والرخام بها عقاقير وجذور جافة ومراهم وأطلية للوجه وكحل للعين وأنواع من الغذاء إذ كان المصريون يعتقدون فى حياة أخرى بعد الموت . ولإيمانهم بهذه الحياة الأخرى أتقنوا فن التحنيط مما يدل على بلوغهم شأواً عالياً فى الكيمياء التجريبية .

وأدركوا بما كانوا يشاهدونه فى الدور الخاصة بالتحنيط أن تخمر الأطعمة فى الأمعاء وتعفنها هو السبب فى كثير من الأمراض وأن نظافة الأمعاء بالنظام الغذائى والحقن الشرجية والملينات والمسهلات من أهم العوامل التى تحفظ للمرء صحته وتقيه من أمراض كثيرة فجعلوها من أهم عاداتهم الصحية . وهم الذين عرفوا أن حفظ الأجسام بالتجفيف الشمسى يحتاج إلى وقت طويل كما أن التسخين يحال الجسم . فاستخدموا التحنيط بواسطة مواد كيماوية حافظة كملح الطعام وملح النطرون والزيوت العطرية .

وتعجب حين تعلم أن ملح النطرون من أهم صفاته إذابة الشحوم والدهون إلى جانب حفظ الجسم .

ويقدم لنا كل من هيرودوت وديودور الصقلى أوصافاً رائعة لعملية التحنيط من تنظيف الأحشاء وغمر فى محاول من أملاح النطرون وغيرها

أو وضعها في هذه الأملاح وهي جافة كما جاء في إحدى كتابات هيرودوت « يوضع في ملح النطرون سبعين يوماً » والترجمة لوصفه أنها تملح كما تملح الأسماك بوضعها في الملح الجاف .

واستخلصوا العطور من الزهور بواسطة الزيوت والدهون .

وتوصلوا إلى صنع الزجاج بمزج الرمل مع النطرون وما زالت حتى الآن في وادي النطرون آثار تدل على صناعة الزجاج منذ آلاف السنين ، بل إنهم كانوا يخلطون الزجاج المنصهر بمواد كيماوية أخرى بنسب معينة وبطرق خاصة فحصلوا على أنواع مختلفة من الزجاج منها الأواني والقوارير وذات ألوان شفافة بيضاء وحمراء وخضراء وزرقاء .

ومهروا في إعداد الجرعات الدوائية وبرعوا في طرق تحضيرها بالغلي والترشيح أو السحق في الهاون أو بين حجرين وأجهزة للعصر في أكياس ، ثم يضغط عليها بواسطة عدد من العصي .

واستعملوا الأواني الفخارية لتنقية الماء وتبريده .

كذلك عمليات النخل والتجفيف الشمسي وفي الأفران والتبخير واستخلاص الأملاح من السوائل والعصارات .

كما يبدو مما تركوه من آثار تقدمهم في التعدين ومهاراتهم في الكشف عن خامات النحاس والحديد والقصدير والأنتمون والذهب والحجارة النفيسة كالفاروز واللازورد وطرق تنقيتها بوسائل جديرة بالإعجاب إذ تقدموا في تلك العلوم آلاف السنين عن العالم المعروف في ذلك الزمان .

عرفوا وقد يكون ذلك بطريق المصادفة أن النحاس بمزجه مع القصدير يتحول إلى معدن البرونز الأكثر صلابة والذي نقل الحضارة إلى العصر البرونزي .

واستخدموا الكور لزيادة الحرارة في أفران الصهر .

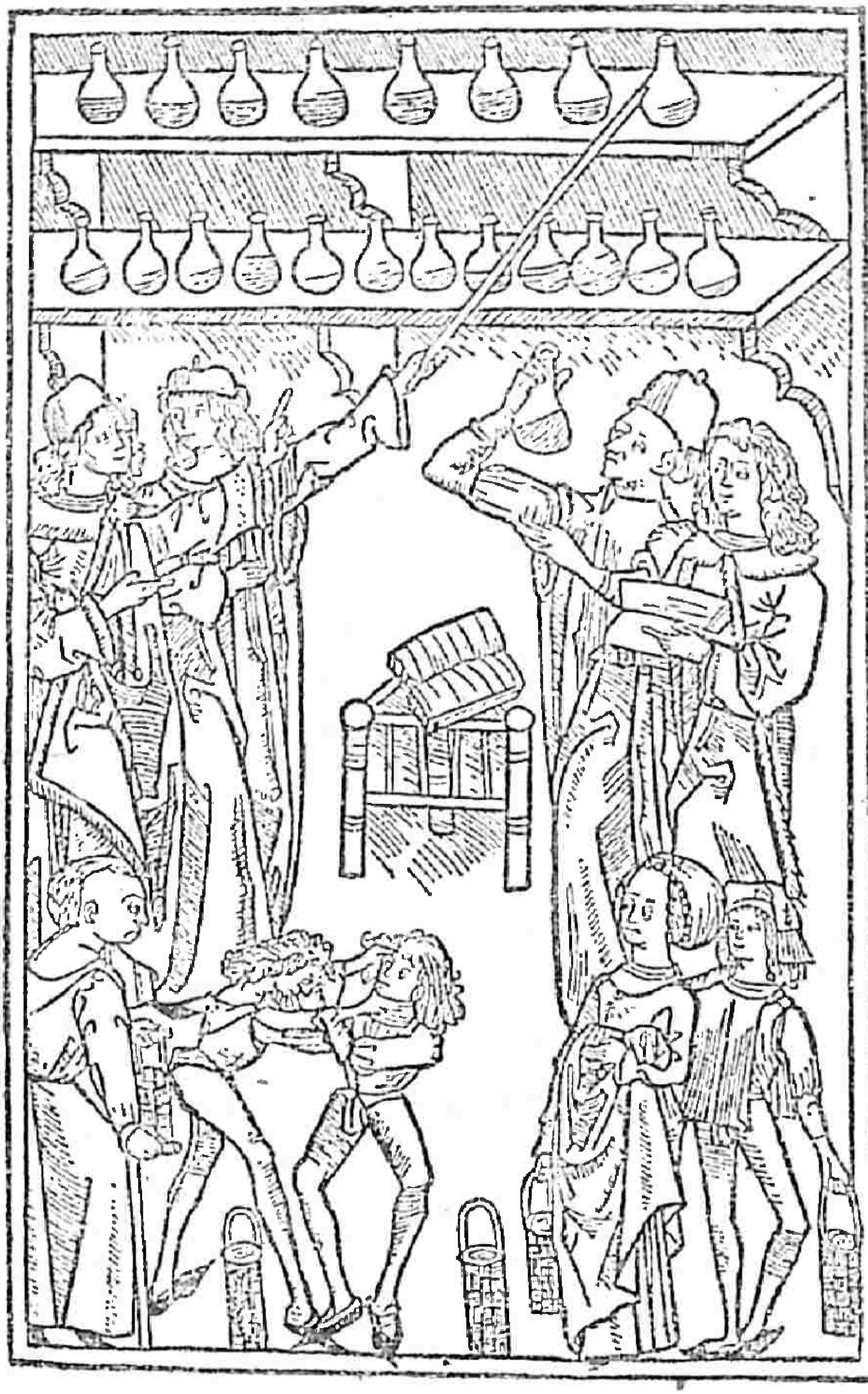

رسم محفور على الخشب لأستاذ يجرى تجربة على تحليل البول أمام تلاميذه

وقطعوا الأحجار الجيرية من الجبال القريبة من النيل ، والرخام بالقرب من تل العمارنة ، والجرانيت من وادى الحمامات بين كوبتوس والبحر الأحمر ونقلت تلك الكتل الضخمة التى تزن عدة أطنان إلى عواصم ملكهم فى طيبة ومنف وعين شمس .

وهم أول من استخدم المحراث فى الزراعة . وأقاموا السدود والخزانات لتنظيم رى الأراضى واتقاء الفيضان . ونبت فى أرضهم الخصبة الخضراوات والفاكهة والكروم والحبوب . واعتنوا بتربية الماشية من أغنام وطيور . وكان لهم من الماشية اللبن يشربونه كثيراً فى الصحة والمرض . وأتقنوا صناعة الجلود ودبغها وصبغها بالألوان لعمل أغطية أسرة النوم والمقاعد والوسائد .

وكانت الأقمشة من الكتان متينة ومتقنة الصنع إلى حد أنها شفافة كالحرير شبيهة به أيضاً فى ملمسه .

وكان نبات البردى ينمو فى مستنقعات الدلتا ، صنعوا منه أقمشة وأكاليل للآلهة واستخدموا ساقه طعاماً واتخذوا من جذوره وسيقانه قوارب وسلالا وحصراً استعملت كأسرة للنوم وصناديق وحبال . وأروع ما استعملوه من نبات البردى هو سيقانه لعمل ورق البردى الذى يعتبر من أهم كشوف المصريين كأداة لنشر العلم وتخليده .

ولا يزال تمثال الكاتب الجالس ممسكاً بيديه ورق البردى دليلا على تقدير المصريين للمتعلم . . .

ويخاطب الأب العجوز ابنه قائلا « يا بنى ! واظب على طلب العلم حتى تصبح كاتباً . فالكاتب دائماً فى مقدمة الركب . لن يجوع أبداً . إن بطنه دائماً ممتلئ بفضل علمه وحكمته . ويقال: شرف الجلوس على مائدة فرعون » .

ودون كثير من علومهم وفنونهم وطبعهم فى عدد من قراطيس البردى

صنعت بطريقة بارعة على شكل كتاب كامل يتكون من لفائف طويلة يلصق طرف كل واحدة منها بالتى تليها ، وقد يصل طولها إلى ثلاثين متراً أو أكثر .

وصنعوا الحبر الأسود بمزج السناج (المادة الكربونية التى تترسب على الجدران) مع الصمغ والماء .

وصنعوا الحبر الأحمر يكتبون به ملاحظاتهم إلى جانب الكتابة بالحبر الأسود أو للتصحيح أو كتابة المقادير . ومن حسن الحظ أنهم وجدوا فى مستنقعات البردى نباتاً آخر وهو السمار أمدهم بأقلام مدببة الطرف للكتابة بها على القراطيس . وكان من بين البرديات التى عثر عليها عدد من البرديات الطبية أهمها بردية (إيبرس) وتبلغ سطورها ٢٢٨٩ سطراً وبردية (سميث) من ٤٦٩ سطراً وبرديات أخرى صغيرة أو قديمة مهلهلة مثل لفائف كاهون لأمراض النساء وكاهون للأمراض البيطرية وبرلين المسماة(وستكار) وبرلين للأمهات والأطفال و(جاردنر)... ودراستها تكاد تكون دراسة شاملة لطب المصريين القدماء وصورة لما كان عليه . ومن بين أمراضهم التى عالجوها بالوصفات الطبية ما ذاع صيته وثبتت فائدته وانتقل عبر البحر المتوسط إلى اليونان وسائر بلاد أوربا ولا يزال بعضها معروفاً حتى اليوم فى ريفهم .

كان جزء كبير من طب بقراط وجالينوس وديوسقوريدس مأخوذاً عن الطب المصرى كما أن كلمة(فارماكوبيا) التى تعنى دستور الأدوية يرجع أصلها إلى الكلمة المصرية القديمة (فارماكى) أى الذى يمنح الشفاء .

كان الطب المصرى القديم متقدماً على غيره بالرغم مما خالطه من دين وسحر . كان ثوث وأوزيريس وإيزيس آلهة للطب وجاء من بعدهم أمحتب الذى مارس الطب والهندسة والفلك والدين . وهو الذى بنى

هرم سقارة المدرج فى عهد الملك زوسر حوالى عام ٢٩٠٠ ق.م. ورفعه المصريون فيما بعد إلى درجة الآلهة . وأقاموا له مثل غيره من الآلهة المعابد فى منف وطيبة وصالحجر وأون وغيرها وجعلوا من تلك المعابد مدارس للطب وتعليم الدين . وأطلقوا عليها (بيوت الحياة) . أخذ يكبر شأنها ونفوذ الكهنة على مر الأيام . وكان جزء منها مخصصاً لإقامة المرضى والنساء العقيمات . ومارس الكهنة العلاج بالصلوات والتضرعات للآلهة وتقديم القرابين وعالجوا بالرقى والسحر والطلاسم . وقد تفيد هذه الوسائل فى بعض الأحيان كما يفعل الطب النفسى فى العصر الحديث من شفاء عدد من المرضى . وجمعوا بينها وبين العلاج بالعقاقير يعدها الصيادلة فى معاملهم داخل المعابد أيضاً . وهم الذين يقومون بجمع الأعشاب الطبية من جذور وسيقان وأوراق وزهور وثمار وبذور يستعملونها على هيئة مساحيق أو أشربة والعقاقير المعدنية والحيوانية واختزانها فى أماكن خاصة .

وكان الأطباء والكهنة يذهبون بأنفسهم إلى منازل المرضى لعلاجهم بالسحر أو الصلاة أو بالعقاقير أو الزيوت والدهون يدلكون بها مواضع أوجاعهم أو قروحهم وجروحهم وكسورهم .

وفرق (الكتاب السرى للقلب) بين الطبيب وكاهن سخمت والساحر . فكان بعض المرضى يقصدون الساحر وآخرون الكاهن والبعض الثالث رجال الطب والصيادلة الذين يعالجون بالعقاقير . بل إن بعضهم كان ينتقل من أحدهم إلى الآخر . وكانت العقاقير فى أول الأمر يتجرعها المريض كعلاج سحرى لإخراج الشياطين أو (الدودة) أو (الأوخدو). . وكانت الجعة والعسل هما المادتين الأساسيتين تمزج بهما العقاقير ليستسيغها المريض أو الزيوت والشحوم للمراهم . أو ماء الشعير كغذاء وحيد فى حالات الامتناع عن الطعام . والثوم والأعشاب التى عرفت خواصها السحرية يتلون عليها الأناشيد والصلوات ويستعملون كوباً اتخذ كمعيار

مقدس للأدوية .

وقد ذكرت بردية (هيرست) التعويذة الآتية لتتلى على العقاقير « هذه الكأس التي أقيس بها الدواء هي الكأس التي قاس بها (حورس) عينه التي أتقن قياسها فمنحته الحياة والسعادة والصحة . وهذا الدواء الذي يقاس في هذه الكأس يخرج من الجسم جميع الأمراض . . . » .

بدأت المعايير في العلاج السحري والديني ثم استعملت اقياس الكميات المضبوطة من الأصناف المختلفة التي يتجرعها المريض وقد يبلغ عددها في العقار الواحد خمسة وثلاثين صنفاً . ومن أهم المعايير التي كانوا يقيسون بها :

(دو) ويساوي خمسة عشر سنتمتراً مكعباً أو ملعقة كبيرة .

واستعملوا الميزان في وزن العقاقير بعد أن كان الغرض منه وزن الحسنات والسيئات .

ومن أوزانهم (القدت) ويساوي تسعة جرامات وثلث جرام و (الدبن) ويوازي عشرة من (القدت) .

وكانت تصاحب عملية مزج العقاقير التي يتناولها المريض تلاوة التعاويذ والصلوات والأناشيد . فهم يعتقدون أن تأثير العقار ليس في صفاته الأقرباذينية أو نتيجة تجاربهم بل هو تأثير سحري . فلكل نوع من الأعشاب أو أملاح المعادن أو العقاقير الحيوانية خواص سحرية خاصة به وتتلى عليه كلمات معينة . وكانت هذه بداية العلاج بالعقاقير . فبعد أن كانت تؤخذ لأغراض سحرية ودينية أصبحت على مر الأيام عقاقير طبية بقي منها ما ثبتت فائدته وأهمل ما كان ضاراً .

ومن البرديات ما يمكن اعتباره كتباً طبية كاملة مثل بردية (إيبرس) للعلاج الطبي بالعقاقير . وتتكون من ٨٧٧ وصفة طبية من بينها اثنتا عشرة وصفة فقط تشتمل على تعاويذ سحرية .

وبردية (إدوين سميث) الجراحية كلها طبية ما عدا وصفتين فى ظهر البردية . وكان الكشف عن بردية إيبرس فى مدينة طيبة عام ١٧٨٢. عثر عليها جورج إيبرس وكان أستاذاً للآثار فى ليبزج وأهداها إلى متحفها كما أنه كتب قصصاً تصور الحياة فى مصر الفراعنة نالت نجاحاً فى أوربا فى ذلك الوقت .

بردية إيبرس :

وتبدأ بردية ايبرس التى كتبت عام ١٥٥٢ قبل الميلاد بأناشيد وتعاويذ لتقوية مفعول العلاج الطبي . أولها :

« . . . وقال (رع) الإله الشمس . سوف أنقذه من أعدائه . ويقوده الإله (ثوث) يمنح المهارة للذى يكون معه . الذى تحبه الآلهة وتحفظه حياً » .

ودعاء يقرأ على عقاقير مكونة من : ابن امرأة ولدت طفلا ذكراً ، والصمغ وشعر كبش ويستعمل علاجاً للحروق . وبعد اثنتى عشرة وصفة تعالج بالرقى والأدعية والتعاويذ ، تبدأ بوصف تشريحى لجسم الإنسان ووظيفة القلب والأوعية « بدء الكتاب السرى للأطباء معرفة حركة القلب. ومعرفة القلب . توجد أوعية من القلب إلى كل الأعضاء . إذا وضع طبيب أو جراح يده أو أصابعه على الرأس أو اليدين أو مكان المعدة أو الذراعين أو القدمين فإنه بذلك يفحص القلب . لأن الأوعية موجودة فى كل من الأطراف . إنه القلب يتكلم فى أوعية كل الأطراف . . . »

ومن بين الأمراض التى يصفها ويذكر علاجها الأورام وتمزقات الأنسجة وأمراض الجلد والأطراف واللسان والأسنان والأنف والأذن والعينين وأمراض النساء والأطفال . ويذكر أكثر من سبعين وصفة

لعلاج الجلد والحروق والنمش والعناية بالشعر .

وكان المصريون والمصريات يخشون الشيخوخة فاستعملوا زيت الحلبة لإزالة تجعدات الوجه .

ووصفوا لعودة اللون الأسود للشعر زيوتاً مخلوطة بدماء عجل أو ثور أسود أو دهن ثعبان أسود . ولمنع تساقط الشعر و « نمو الشعر فى رأس الأصلع » مزيجاً من دهن الأسد والتمساح والقطة والثعبان . أو علاجاً آخر عبارة عن أشواك قنفذ محروقة ومغمورة فى الزيت . أو حبراً أحمر وأصابع الكلاب وحوافر الحمير وبلحاً ناضجاً . أو تدليك الرأس بالزيت والتربنتينا .

وما زالت حتى اليوم الأوانى التى يضعون فيها أدهان الزينة والكحل وغيرها من أدوات الزينة موجودة بين آثارهم بكميات كبيرة . واستخدمت العطور لتعطير أجسام النساء وثيابهن وشعورهن . والحناء لصبغ راحة اليد والقدم . والمغرة الحمراء لطلاء الشفاه والخدود باللون الأحمر . واستعملن الكحل للحواجب والجوانب الخارجية للعين . وكن يضعن الكحل الأسود على الجزء العلوى من العين وهو من الجالينا (كبريتيد الرصاص) والكحل الأخضر من الملاخيت (كربونات النحاس الأخضر على الجزء أسفل العين . ثم استعملن اللون الأسود لكل من الجزأين ومن المعتقد أن المراد من ذلك إظهار بريق العين وإبراز جمالها بل كان أيضاً لأغراض سحرية .

ومن العقاقير التى ذكرتها البردية وما زالت تستعمل زيت الخروع لعلاج الإمساك ودهاناً للشعر .

وللشفاء من الصداع تدق حبوب الخروع وتخلط بالماء ثم توضع على الرأس « سوف يزول الصداع كأن لم يكن » . والثوم والبصل وكزبرة البئر وبصل العنصل وهذا الأخير للاستسقاء . والرمان للديدان فى

الأمعاء وضد الإسهال واللبخ والزعفران والجنطيانا والكرفس والشبت والكمون واليانسون والشمر والتمرة وجذور العرقسوس يعدون منها دواء ملينا وشرابا مرطباً في الصيف وقد وجدت كمية منه في مقبرة توت عنخ آمون ، والجميز والتين ، ومن الحبوب القمح والشعير والذرة الرفيعة .

ويؤخذ الدواء كجرعات مسهلة هي مزيج من اللبن والعسل والخميرة .

أو تعمل حبوب من العرعر والخشخاش والبصل وعسل النحل .

ووصفة بجرعة يشربها المريض ضد الإمساك أيضاً « يؤخذ بلح طازج جزء واحد وملح البحر جزء واحد . وعصير (السبت) جزء واحد . تضعهم في الماء في إناء من الفخار . ضع فوقها قرون السنامكي بعد تكسيرها . ويطهى المزيج ثم يبرد . ويشربه المريض . دعه يشرب عقبه الجعة الحلوة » .

وعقاقير لإزالة الروائح الكريهة والتبخير والاستنشاق ومراهم من شمع وعسل وبذر كتان مدقوق وزيوت وشحوم ودهون . . . ولبخات ولبوس شرجية وتلابيس مهبلية . وقطرات توضع في العين بواسطة ريشة طائر .

ولأمراض العين الملاخيت والإثمد والمغرة الصفراء .

واستعملوا مغلي الخشخاش لتهدئة الأطفال من الألم والمغص ونومهم . وعالجوا النزلات المعوية بلبن الأم التي ولدت طفلا ذكراً مع حبوب (سبت) وسيقان البردى .

ولعلاج الأسنان استعملوا الكندر (لبان دكر) والمغرة الصفراء مع العسل . وللثة المتقرحة القرفة والصمغ والزيت والعسل . أو الجميز والمغرة الصفراء والعسل . ومضمضة للفم مكونة من لبن البقرة والبلح الطازج والمن يستمر لمدة تسعة أيام متتالية .

بردية إدوين سميث :

بردية إدوين سميث طولها ٤,٦٨ أمتار وعرضها ٣٣ سنتيمتراً مكتوبة بالحبر الأسود والكلمات التى يراد إظهارها والملاحظات الهامة بالحبر الأحمر ، وتبدأ بأجزاء من (كتاب أوعية القلب) ثم ثمانية وأربعين حالة من جروح وكسور وأورام وقروح وكيفية علاجها . وفى الوجه الخلفى من البردية تعويذة سحرية لتحويل الرجل العجوز إلى شاب فى العشرين. وأدعية لمنع الرياح الحاملة للأوبئة .

بردية هيرست :

محفوظة فى جامعة كاليفورنيا . وهى مكتوبة أيضاً فى فترة لا تبعد كثيراً عن بردتى إيبرس وسميث وبها عدد من الوصفات ذكر فى بردية إيبرس إلى جانب وصفات سحرية والكأس السحرية لقياس الأدوية وتعاويذ تتلى على الأدوية وماء الشعير والعسل والجعة والدهون والزيوت .

ووصفات لعلاج (الميتو) لتهدئتها . فإن ثورة (الميتو) تسبب الأمراض فى اعتقادهم .

ووصفات لنمو الشعر من عقاقير بينها بذر الخلة وحب العزيز والعفص وزيوت الصنوبر والتربنتينا .

بردية برلين :

للأم والطفل ، بها تعاويذ لتسهيل الولادة ومعرفة نوع المولود ووقاية الأطفال من الأمراض والأرواح الشريرة .

برديتى كاهون :

أقدم برديتين عثر عليهما فى كاهون بمحافظة الفيوم وهما فى حالة ممزقة والكثير من كلماتهما اختفى . إحداهما لأمراض النساء والثانية للطب البيطرى .

ثم بردية لندن وأكثرها سحرى .

وبردية جاردنر لأمراض الشرج .

حضارات أخرى قديمة

عاصرت حضارة بابل وآشور ومصر حضارات أخرى فى بلاد العرب واليمن والحبشة ثم فارس والهند والصين واليابان وفى أمريكا الوسطى والجنوبية وغيرها .

وليس من اليسير معرفة أى هذه الحضارات كان أعرق فى وسائل تطبيبها ومن الذى بدأ بتشخيص هذا المرض أو ذاك واستعمال العقاقير التى ظل البعض منها حتى يومنا هذا علاجاً شعبياً أو معترفاً به فى الدساتير الطبية .

طب العرب فى الجاهلية

كان العرب كثيرى الترحال بحثاً عن الماء والمرعى فى صحراء شاسعة ، يعيشون على ماشيتهم ، يتغذون بلحومها وألبانها ، ويتخذون من صوفها ثياباً يغزلونها بأيديهم .

أما المناطق القريبة من شواطئ البحار فقد كان بها مدنيات ذكرها القرآن الكريم كمدينة سبأ وسد مأرب فى بلاد اليمن التى كان يسكنها بنو قحطان . وفى الأراضى التى سميت فيما بعد بالحجاز شعب بنى عدنان. وكان هذان الشعبان على اتصال وثيق بما جاورهما من بلاد الساحل الإفريقى . ثم فى آسيا بلاد النهرين وفارس والهند والصين . وساعد على ذلك موقعهم الجغرافى المتوسط . وكانت القوارب والسفن فى البحر وقوافل الجمال فى مسالك الصحراء سبيلهم إلى ذلك .

لم يصل إلينا من حياة عرب الجاهلية إلا النادر خلال ما تناقلته الأجيال من رواية شعرهم وذكر عرافيهم وأطبائهم ووسائل العلاج بالسحر أو الشعوذة أو الطب بالعقاقير أو الحمية أو الفصد أو الحجامة أو الكى .

وكان من علومهم الكهانة وهى التنبؤ بالأحداث قبل وقوعها . ونسب ذلك إلى عزلتهم وصفاء نفوسهم ، فهى بذلك أقدر على الاطلاع على أسرار الطبيعة .

ثم الفراسة وقد انتشر هذا العلم منذ الجاهلية وبقى حتى إلى ما بعد الإسلام . وهناك قصص كثيرة تدل على مهارتهم الفائقة وذكائهم الفطرى .

والعزائم وهي التي تعرف الآن بالتنويم المغناطيسي وتحضير الأرواح والسحر والطلاسم والتمائم والتنجيم والفأل والطيرة .

ومن العلوم الهامة التي اشتغل بها العرب قديماً وكانوا يعتبرونها نوعاً هاماً من التطبيب : العرافة .

اشتهروا بها وحازوا ثقة أهل زمانهم كرباح بن عجلة عرّاف اليمامة الذي قال فيه الشاعر عروة ابن حزام :

جعلت لعراف اليمامة حكمه   وعراف نجد إن هما شفياني
فقالا نعم نشفي من الداء كله   وقاما مع العواد يبتدراني
فما تركا من حكمة يعلمانها   ولا سلوة إلا بها سقياني

وقوله أيضاً :

فقلت لعرّاف اليمامة داوني   فإنك إن أبريتني لطبيب

وكان العرب يستعينون بالعرافين للكشف عما يخبئه المستقبل واستنتاج الحوادث بتطبيقها على مثيلاتها في الماضي .

ولكنهم عرفوا الطب العلاجي التجريبي . وكان لهم أطباء بقيت ذكراهم آلاف السنين . بل كانت منهم طبيبات ذاع اسم إحداهن وهي زينب طبيبة بني أود . اختصت بأمراض العيون . وهي التي قال فيها أبو السماك الأسدي كما جاء في كتاب الأغاني :

أمخترمي ريب المنون ولم أزر   طبيب بني أود على النأي زينبا

ومن أطباء الجاهلية الحارث بن كلدة الثقفي كان من الطائف وسافر إلى بلاد فارس وتعلم فنون الطب وكان يتقن العزف على العود . وعاش إلى ما بعد الإسلام . وله كتاب مشهور عن أحاديثه الطبية مع كسرى

أنو شروان ملك فارس عن الصحة والمرض والعلاج بالحمية والابتعاد عن التخمة وعدم الاستحمام بعد الطعام أو التفكير فى هموم الحياة أثناء الطعام أو قبل النوم . والفصد والحجامة والعقاقير وأثرها . . .

وكان ابنه النصر بن الحارث طبيباً ماهراً فى فنه مثل أبيه .

وكذلك ابن حزيم ، وابن أثال فى دمشق ودميان وكوسم وسمى هذان الأخيران أبوى الطب والصيدلة فى سوريا وكانا مسيحيين أقيمت لهما هناك كنيسة تذكارية .

ثم رشيد الدين أبو خليفة الطبيب الصيدلى وقضى معظم حياته فى مصر وأدركه الإسلام ومن كتبه (المختار فى الألف عقار) فى الأدوية المفردة والمركبة .

بلاد الفرس

كان الكهنة هم الأطباء فى بلاد فارس يتبعون قوانين (زرادشت). مارسوا السحر والرقى لإخراج الشياطين معتقدين أنهم سبب تسعمائة وتسعين مرضاً تصيب الإنسان .

وبالرغم من ذلك فإن أهل فارس القدماء استعملوا لعلاجهم كثيراً من العقاقير الطبية كالأفيون والحلتيت وبعض الراتنجات العطرية وعقاقير أخرى تعافها النفس كان من بينها بول الإنسان .

الهند

دلت الآثار الباقية من حضارة الهند القديمة أن الطب وتشخيص المرض وطرق العلاج بالجراحة والعقاقير كانت متقدمة . وما زالت حتى اليوم طرق العلاج القديمة تمارس بين الهنود مما يدل على أنها ذات فائدة

محققة وخالط الطب كثير من الكهانة . وكان لكل مرض إله خاص به كما أنهم آمنوا بأرواح الخير والشر. يقيمون الاحتفالات الدينية وينشدون الأناشيد لعلاج المرضى . ولقربهم من بلاد سومر وبابل والأكاديين والأشوريين فإنهم آمنوا بالكهانة . والتنبؤ بالمرض والتفاؤل والطيرة وتقمص الأرواح نجد الكثير منها فى لوحات أكادية جاء فيها أيضاً ذكر الهندوملوكها.

وأهم مصدر لمعلوماتنا الطبية عن الهند كتاب (الفيداس) المكتوب باللغة السنسكريتية منذ أكثر من أربعة آلاف عام . وهو مجموعة من الرقى والتعاويذ للشفاء من الأمراض . ثم كتاب :(آيورفيداس) ومعناه (علم الحياة) ويصور حياة الطبيبين (شاركا) و (سوسروتا) وطرق علاجهما والعقاقير والأعشاب التى كانا يصفانها . ويعرف بالتقريب أنهما عاشا فى فترة تقع ما بين مائتى عام قبل الميلاد ومائتين بعده .

وقد قسم (سوسروتا) المادة الطبية إلى سبعة وثلاثين جزءاً تبعاً للأمراض ومن بين السبعمائة عقار من الأعشاب التى ذكرها اللحلاح والقثاء الهندى والصبر والكركم وزيت الخروع . . .

ومن المعادن الشبه والزرنيخ والبورق وأملاح الرصاص والزنك .

ومن العقاقير الحيوانية الزراريج ولحم الثعابين وعدد من الشحوم والدهون وإفرازات الحيوانات .

وفى الكتابات الدينية لأتباع بوذا المكتوبة أيضاً باللغة السنسكريتية أوصاف للأمراض وقصة بعض الذين كانوا يمارسون الطب وجمع العقاقير والأعشاب مثل (جيفاكا) الذى طلب أستاذه فى العقاقير منه ومن زملائه أن يجمعوا له النباتات ذات الفائدة الطبية . واستطاع (جيفاكا) أن يجمع عدداً من النباتات يفوق زملاءه بكثير . ولما سأله أجابه عن خواصها الطبية المعروفة حينذاك . وخواص أخرى لم يكن

يعرفها أستاذه .!

وقصة أحد ملوك الهند الذى كان يقاسى من آلام لم يعرف الأطباء سبباً لها أو ينجحوا فى شفائه .

وعندما علم (جيفاكا) بذلك . وكان قد سمع بالأمس عن أحد المرضى مات بنفس العلة ، ذهب إلى القبر وفتح الجثة وأخذ يفتش فى أحشائها حتى عثر على ديدان فى أمعائه وأجرى عليها التجارب فوجد أن عصير الثوم يقضى عليها . فقام إلى الملك من توّه وأعدّ له جرعة من عصير الثوم قتلت ما فى بطنه من ديدان وعوفى من مرضه .